لتكن جامعاتنا العربية نافذة الأمل والتغيير

د. فادي محمد الدحدوح

انطلقت شمس ٢٠١٩، وأفئدة المجتمعات العربية ترنو لفجر مشرق يزيل ضباب عمر طويل من الألم والجراحات ونزيف مستمر من التراجع.. ولن يتأتى ذلك إلا من خلال بحث علمي موجه بكافة مناحي الحياة، ولعل مؤسساتنا العلمية وركيزتها مؤسسات التعليم العالي تعد حلقات الترابط في مشروع من الثقافة الشمولية الكونية. ولا تكتسب الجامعة لقبها كمؤسسة تعليم عالي، كونها تقدم تعليما يلي تعليم آخر، وإنما هي أعلى في كونها تلامس ينابيع الإبداع في ذوات مريديها فتتعهّدها وتصقلها وتضفي إلى العلوم رصانة البحث.

تعتبر جامعاتنا العربية بمثابة المستهلك الأساسي للمعرفة الغربية، والتي تتمثل في كل أنواع العلم والتكنولوجيا والمجلات والدوريات المختلفة ودُور النشر، ومصادر جمع المعلومات وبنوكها وغير ذلك من الوسائل المعرفية الحديثة التي تعتمد عليها المؤسسات العلمية الجامعية الأكاديمية. حتى أن بعض الدول العربية والتي حظيت بمكانة علمية وتكنولوجية حديثا؛ تفتقد إلى السيطرة والتحكّم على وسائلها المعرفية وعمليات إنتاجها وتوزيعها.

إن وضع جامعاتنا العربية يتطلب من العلماء والباحثين وأساتذة الجامعات والطلبة جهداً مميزًا للاستفادة بالحد الأقصى من عولمة العلوم والمعلومات ومصادرها، وبغير هذا فإن الهوة سوف تزداد بين من يملك ناصية العلوم والتكنولوجيا والمعلومات ومن لا يمتلكها. ويتطلب هذا أيضا إدراك المنظومة القيمية المتعلقة بحسن إدارة الوقت واستثماره وتعظيم الاستفادة منه.

إن مرحلة إنتاج المعرفة هي الأرقى من اكتساب المعرفة، حيث ينطوي إنتاج المعرفة على امتلاك الجامعات العربية القدرة على الإضافة إلى رصيد المعرفة الإنسانية الذي يعرفه جميع البشر ولهذا نتساءل: ما هو حال إنتاج المعرفة في الجامعات العربية في المجالات العلمية والتقنية، والأدبية والإنسانية والاجتماعية والفنية؟

نجد صعوبة في الحصول على معلومات حديثة ودقيقة ومتكاملة حول مُخرجات أنشطة البحث العلمي في مؤسسات التعليم العالي العربي. غير أنه يمكن بشكل عام قياس مُخرجات البحث العلمي من خلال المنشورات العلمية، وبراءات الاختراع، والابتكارات وقد ذكر تقرير التنمية العربي وبعض الدراسات أن هناك فقراً في إنتاج الكتب في البلدان العربية مقارنة بعدد السكان، كما أن الأسواق تكاد تخلو من الابتكارات العربية، وهذا يشير إلى أن البحث العلمي في البلدان العربية لم يرقى بعد إلى مرحلة الابتكار التي تمكن من دخول مشارف اقتصاد المعرفة واطراد التنمية الإنسانية.

إن مؤسسات التعليم العالي العربي مطالبة مع بداية السنة الجديدة أن تنطلق للدرجة الإبداعية، وتصبح قادرة على تنمية مهارات التعامل مع المستقبل، كمهارات التوقع، وتعني القدرة على التنبؤ بالأحداث قبل وقوعها، ومهارات التشارك، وهي عملية عقلية تؤدي إلى فهم واضح، مشترك وفعال للمشكلات، وبلورة نتائجها من خلال التعاون والتعاطف والتحاور، وهناك مهارات اقتحام المجهول التي تتمخض عن تدريب المتعلم على حل المشكلات، وألعاب المحاكاة، والخيال العلمي، والربط بين المعارف العامة والمهارات الفنية والمزاوجة بين الخبرة الشخصية والعملية والأكاديمية.

إن صناع القرار في الجامعات العربية مطالبين بضرورة إدراك التحول في طبيعة المعرفة ومكانتها ودورها في المجتمعات المعاصرة، والعمل المكثف المتواصل على إصلاح مراكز صناعة وإنتاج المعرفة المتمثل في مراكز المعلومات والجامعات العربية بشكل خاص بما يضمن لها أن تكون مواكبة لعصر الانفجار المعرفي وتساهم في إنتاج المعرفة، كما يشمل ذلك عدم فصل عملية الإصلاح لمؤسسات التعليم العالي بالإصلاح الشامل في مجتمعاتنا، وفي هذا المقام نركز أكثر على إصلاح مراكز إنتاج المعرفة لما لها من أولوية في تصحيح وتطوير الرؤية والمسار المستقبلي للتعليم العالي.

ولا بد إذن من الصدام الحضاري الإيجابي الذي سيؤدي بدوره إلى حوار يوصل إلى التجديد الذي ينعكس على بعث مجد هذه الأمة من جديد وإشراق دورها العلمي المعتمد على جذور حضارة غائرة في أعماق التاريخ.

وختامًا إن لم نسارع مع بداية السنة الجديدة إلى التوجه نحو وظيفة إنتاج المعرفة، فسيظل تعليمًا قاصرًا لا قيمة له في دفع حركة التنمية الوطنية إلى أفق عالمي. والمقصود بإنتاج المعرفة ليس المعرفة التقنية ذات الصلة بالطبيعة والعلوم الطبيعية فقط، ولكن إنتاج المعرفة في العلوم الإنسانية أيضًا أمر ضروري ومهم لأي نهضة أو تقدم.

ثروة الجامعات العربية.. في زمن التحديات

يستمر التنافس والتسابق بين مؤسسات التعليم العالي على مدار مسيرتها التعليمية، وتأخذ فيه مساعي هذه المؤسسات نحو المقدمة صورا وأشكالا متنوعة تبرز في جهود تعزيز البحث العلمي، من خلال إثراء البيئة التعليمية بالتقنيات والمنهجيات المتقدمة، وتعزيز قدرات الطلبة والخريجين، فيما أكّد المدير الإقليمي لمؤسسة «كواكواريلي سيموندز» (QS) في منطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، آشوين فرناندیز، أن تقرير عام ٢٠١٩، الصادر عن المؤسسة، ارتقى بمعايير التصنيف السنوي لأفضل الجامعات في العالم إلى مستويات أعلى،

مشيراً إلى أن التصنيف يستخدم إطاراً منهجياً متّسقًا يعتمد على ستة معايير يتم فيها تقييم أداء الجامعات، فيما لم تصل الجامعات العربية بعد للمستوى المنشود في الريادة

تختلف وظائف الجامعات تبعًا لاختلاف المجتمعات ونظمها، إلا أن قدرتها على تحقيق أهدافها ورسالتها في بناء وتنمية المجتمعات، يتوقف على مدى قدرتها على أداء وظائفها المختلفة والتي يمكن إجمالها في ثلاث وظائف رئيسية وهي نقل المعرفة من خلال التعليم، وإنتاج المعرفة من خلال البحث العلمي الرصين، وتنمية المجتمع؛ ونجد أن كل وظيفة لا تعبر عن جهود مستقلة تتم بمعزل عن الوظيفة الأخرى، بل توجد صلة وثيقة وترابط تام بينهم.

وتأتي مهمة إنتاج المعرفة من الوظائف الرئيسية للجامعات العربية؛ والعمل على إثراء التراث الإنساني والعلمي والثقافي. ويبدو أن هذه الوظيفة تعزز عند مجتمع الطلبة والعاملين في الجامعات سمات عقلنة العلم، وتفعيل المنهجيات العلمية لإيجاد حلول لمختلف المشاكل المجتمعية التي يعاني منها المجتمع العربي، ووضع خطط العمل بناء على تصورات واقعية تأخذ بالاعتبار الأهداف من جهة والإمكانيات والقدرات من جهة أخرى. وفي سبيل تحقيق ذلك؛ فان قادة الجامعات العصرية تحتاج أن تقوم برفع فاعلية رأس المال البشري عبر الوصول الى المهارات، والقدرة على التعلم وتطوير التكنولوجيا.

كما تعد وظيفة التصدي لحاجات التنمية والتغلب على تحدياتها ومعيقاتها داخل المجتمع العربي من أدوار الجامعات العربية الرئيسية في المرحلة القادمة، لا سيما في ضوء تشابك المصالح المجتمعية، وزيادة درجة الضغوط على الموارد والمصادر المتاحة، وعادة تتم هذه المهمة بناء القدرات التنموية، إضافة إلى مقدرة الجامعات العربية في تطوير وعي مجتمعي بالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية والبيئية والصحية والتربوية التي يمر بها المجتمع العربي والتي تقف عائقا أمام التنمية.

وتساعد الجامعات في ربط حاجات المجتمعات العربية في حاجات التنمية من خلال بناء الشراكات التي تجمع الأكاديميين والطلبة والمجتمعات المحلية للتعرف على أولويات التنمية وتحدياتها ، كما أن الجامعات هي عامل فاعل في وضع الخطط التنموية من خلال الدراسات والأبحاث والتصورات النظرية والتجارب العالمية ، وربط الأهداف الموضوعة مع القدرات والطاقات الحقيقية التي يمتلكها المجتمع العربي.

ويأتي البحث العلمي ضمن قلب عملية الدور المناط من قبل الجامعات العربية في المرحلة القادمة؛ لان التعليم العالي صمم بشكل إبداعي لدعم الاكتشافات والتكامل والتطبيق العملي والتدريس في معادلة واحدة تكفل

تضافر هذه الوظائف في عمل الجامعات في زمن العولمة. وقد ازدادت أهمية هذا التضافر في هذه المهام في ضوء بروز اقتصاد المعرفة واقتصاد المعلومات واقتصاد الخدمات لان اقتصاد المعرفة يعني إنتاج المعرفة علمياً وتطبقيها وتطويرها بشكل دائم يضمن الجودة.

وختاماً فإن التعليم أصبح أداة رئيسية للمجتمعات في مضمار التقدم والتنمية الشاملة التي يتسم بها العالم المعاصر والتسارع المعرفي الشديد، وبات الفرد المتعلم هو العنصر الفعال في النهضة الشاملة للمجتمع، ومن ثم أصبحت عملية التقدم والتنمية تقاس بما أنجزته المؤسسات التعليمية من تعليم وتثقيف لأبنائها، وما حققته من خطط وبرامج تعليمية تساعدها في النمو الاقتصادي، والاجتماعي ، والثقافي ، وبناءً على ذلك فقد أيقنت كثير من الدول أهمية التعليم بصفة عامة ، والتعليم الجامعي بصفة خاصة، لارتباطه الشديد بعوامل التنمية والتقدم، لذلك أصبح الإنفاق على الجامعات استثماراً حقيقياً في مجال تنمية الموارد البشرية وجزء من سياسة التنمية الشاملة.